من كلمة إلى عقيدة حرب

العماليق

لم تعد اسماً لقبيلة قديمة

بل صفة تُلصق بالعدو

عدو لا تكفي هزيمته

بل يطُلب محوه

حين تتحول الكلمة إلى عقيدة

يصبح العنف أكثر من قرار عسكري.

يصبح واجبًا مؤدلجًا.

من عماليق " نتانياهو" إلى الحضارة " الغربية "

بتول الغداف

عندما أراد بنيامين نتنياهو أن يشرح ما تفعله إسرائيل في حربها على إيران، لم يحتج إلى هانس مورغنثاو، ولا إلى نظريات الردع، ولا إلى لغة توازن القوى. عاد إلى التوراة. «تذكّر ما فعله بك عماليق**. نحن نتذكّر ونتصرّف». قبل ذلك، في حرب غزة عام 2023، استدعى نتنياهو «عماليق» أيضاً وهو يتحدّث عن الحرب. وفي آذار 2026 أعاد المرجعية نفسها وهو يقف في موقع أصابه صاروخ إيراني.

المثير هنا ليس أن سياسياً «إسرائيلياً» يستخدم الدين. فهذا أمر يمكن تفسيره بسهولة بالانتخابات، أو تعبئة الجمهور، أو صعود اليمين الديني. السؤال الأكثر إزعاجاً هو التالي: لماذا نستعجل نحن في إخراج الدين من تفسير الحرب؟

لماذا نفترض، بصورة شبه تلقائية، أن حديث نتنياهو عن التوراة هو «خطاب»، فيما الأسباب الحقيقية موجودة في مكان آخر: الأمن، الأرض، القوة، البرنامج النووي، مصالح الولايات المتحدة، السيطرة الإقليمية؟ ماذا لو كان هذا الفصل نفسه بين «الديني» و«الحقيقي» جزءاً من الميراث الذي تركته لنا الحداثة الأوروبية؟

ليس المقصود أن كل حرب استعمارية تنطلق من خلاف عقائدي مباشر، ولا أن المصالح المادية غير مهمة. المقصود أن الاستعمار، منذ تشكّله، لم يكن مشروعاً عسكرياً واقتصادياً قَطْ. أتى الاستعمار وهو يحمل معه تصوّراً كاملاً للعالم: من هو الإنسان؟ من يملك الحقيقة؟ من يملك الأرض؟ من هو المتحضّر؟ ومن يحق له أن يحدّد مستقبل الآخرين؟

قبل أن تكون أسئلةً استراتيجية، هي أسئلة تمسّ معنى الإنسان والعالم. تحدّد من يملك الحق أصلاً، وأي عنف يمكن تبريره. هي أسئلة كانت، لقرون طويلة، تُصاغ داخل عالم ديني قبل أن تتعلم الحداثة صياغتها بلغات أخرى.

متى صار الدين شيئاً منفصلاً عن السياسة؟

نحن نتعامل اليوم مع «الدين» وكأنه مفهوم واضح كان موجوداً دائماً بالمعنى نفسه: إيمان فردي، وعبادة، وعلاقة خاصة بالله، منفصلة عن الاقتصاد والسياسة والحرب. لكنّ هذا المفهوم نفسه له تاريخ.

يشير عالم الأنثروبولوجيا طلال أسد، أحد أبرز من نقدوا التعريف الحديث للدين، إلى أن مفهوم «الدين» لا يمكن فصله عن السياق التاريخي والاجتماعي الذي أنتجه. والفصل بين الدين والسلطة، الذي يبدو لنا اليوم بديهياً، لم يكن القاعدة العامة، وإنما خرج من تجربة أوروبية محدّدة تشكّلت داخل تاريخ المسيحية الأوروبية والإصلاح الديني والصراعات التي أعادت رسم العلاقة بين الكنيسة والدولة. ثم انتقل هذا التصوّر خارج أوروبا مع التوسّع الاستعماري، ومع المدارس والإدارات والقوانين التي أقامتها القوى الاستعمارية في مستعمراتها، ولاحقاً عبر أنظمة الانتداب والدولة الحديثة التي أعادت تنظيم المجال العام وفق الثنائية نفسها: الدين في الحيز الخاص، والسياسة والإدارة والمعرفة في حيز يُقدَّم على أنه عقلاني ومحايد. تدريجياً، ارتبط «الديني» بالخاص والعاطفي وغير العقلاني، فيما احتل «العلماني» موقع العام والعقلاني والتقدّمي والموضوعي. وهنا تلفت الباحثة في السياسة الدولية إليزابيث شاكمان هيرد إلى مسألة أكثر حساسية: العلمانية لا تقف ببساطة خارج الدين، وإنما تشارك في تعريفه، وتحدّد ما الذي يُسمّى ديناً أصلاً، وما المجال الذي يُسمح له بأن يوجد فيه.

التحوّل هنا لم يكن من مجتمع ديني إلى مجتمع بلا دين. الذي تغيّر هو ما أصبحنا نسمّيه «ديناً». فالصلاة والصوم والعبادات وبعض القيم الأخلاقية وُضعت تدريجياً في خانة الدين، بينما أصبحت السياسة والاقتصاد والقانون والعلم وطريقة تنظيم المجتمع تُقدَّم باعتبارها مجالات «علمانية» لا علاقة لها بالدين.

المشكلة أن هذا الفصل جعل كثيراً من الأفكار الأوروبية تبدو محايدة، مع أنها خرجت من تاريخ وتجربة محددَيْن. فعندما اضطرت أوروبا أن تعرّف ما هو التقدّم، وما هو المجتمع المتحضّر، وما هي الدولة الحديثة، لم تعد هذه التصورات تظهر كجزء من رؤيتها الخاصة (أي رؤيتها الدينية) للعالم، بل كحقائق عقلانية وطبيعية يفترض أن يقبل بها الجميع. وهكذا بقي الدين ظاهراً في الصلاة والكنيسة، بينما اختفت كثير من الافتراضات التي شكّلت السياسة والاستعمار داخل ما أصبحنا نسمّيه «العقلانية» و«الحداثة» بحسب تجربة أوروبية خاصة.

حين خرجت أوروبا إلى العالم 1492

ومن هنا تأخذ سنة 1492 معنى يتجاوز رحلة كريستوفر كولومبوس. ففي السنة نفسها التي وصل فيها إلى القارة الأميركية، سقطت غرناطة وانتهى آخر حكم إسلامي في الأندلس. تزامن الحدثين لا يجعلهما شيئاً واحداً، لكنه يكشف السياق الذي خرج منه التوسّع الإسباني. فإسبانيا التي بدأت توسّعها خارج أوروبا كانت قد خرجت للتوّ من صراع طويل لعب فيه الانتماء الديني دوراً أساسياً في تعريف الجماعة والخصم. وكان

الملك يستمدّ شرعيته من نظام ديني وسياسي متداخل؛ لذلك لم يكن التوسّع يُفهم باعتباره ممارسة للقوة وحدها، وكان نشر العقيدة جزءاً من الطريقة التي تفهم بها الإمبراطوريات مهمتها في العالم.

تكمن أهمية هذه اللحظة من التاريخ أنها تعيد صياغة فهمنا لبداية العالم الحديث. فالقصة ليست ببساطة أن أوروبا استيقظت يوماً وتخلّصت من الدين، ثم أصبحت أكثر عقلانية وعلمانية. فالعالم الحديث كان يتشكّل أيضاً أثناء التوسّع الأوروبي خارج القارة في اللحظة التي بدأت فيها أوروبا تصنّف شعوباً أخرى وفق معاييرها الخاصة للدين والحضارة والإنسان. وكان المبشّرون جزءاً من المشروع الاستعماري نفسه. فلم يكن المطلوب منهم تغيير عقيدة الناس وحدها، وإنما تغيير الطريقة التي يعيشون بها ويفهمون بها أنفسهم والعالم من حولهم. وكان ما هو أوروبي يُقدَّم، في كثير من الأحيان، باعتباره «الحقيقة والتحضّر.«

ولعل كولومبوس نفسه يوضح ذلك أكثر من أي نقاش نظري. عندما التقى السكان الأصليين في القارة الأميركية، كتب أنهم، بحسب فهمه، «لا دين لهم». وفي المقطع نفسه تقريباً، رأى أنهم سيكونون سهلين في التنصير، وأنهم يصلحون ليكونوا خدماً اجتماع هذه الأفكار في النظرة نفسها دليل أن كولومبوس لم يرَ مجتمعاً يملك تصوّراً مختلفاً للعالم. رأى أناساً يفتقدون ما يعرّفه هو بالديني.

وهذا ما يلفت إليه نلسون مالدونادو-توريس؛ فنفي الدين عن السكان الأصليين كان جزءاً من عملية أوسع جرى فيها التشكيك في مكانتهم كأشخاص كاملين، ثم نزع أراضيهم وإخضاعهم واستعبادهم. عندما يقرر المستعمِر أن الآخر يفتقد الدين الصحيح، أو العقل، أو الحضارة، يصبح من الأسهل بناء عالم تكون حقوق هذا الآخر داخله أقل.

وهنا تكمن النقطة الأساسية: الدين لم يكن مجرّد حجة استُخدمت بعد اتخاذ قرار الغزو لتبريره. كان جزءاً من النظرة التي حملها المستعمِر معه إلى العالم. ومن خلال هذه النظرة كان يحدد من يقف أمامه، وما قيمته، وما الحقوق التي يستحقها، وما الذي يجوز فعله به.

من «الدين الصحيح» إلى «المجتمع المتحضّر«

وأثناء كل ذلك، كانت أوروبا نفسها تتغيّر. منذ القرن السادس عشر، مزّقت الإصلاحات الدينية والحروب المذهبية وحدتها المسيحية، ثم صعدت الدولة الحديثة والعلم التجريبي وفلسفات التنوير. شيئاً فشيئاً، لم يعد ممكناً تأسيس السلطة والمعرفة بلغة دينية واحدة كما كان من قبل. الدين لم يختفِ. الذي تغيّر هو أن العقل والعلم والتقدم أصبحت مصادر جديدة للشرعيّة ولتعريف ما هو صحيح وما هو متقدّم.

وهذا التحوّل غيّر أيضاً لغة الاستعمار. فإذا كان المستعمِر في مرحلة سابقة يستطيع أن يبرر مهمته بإنقاذ الأرواح ونشر المسيحية، أصبح في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قادراً على تقديم المهمة نفسها باعتبارها نشراً للحضارة والتعليم والعلم والتقدّم. لم يعد يقول فقط: «دينك خاطئ»، بل: «مجتمعك متأخر». ولم يعد الأوروبي مضطراً دائماً إلى القول للآخر إن عليه أن يصبح مسيحياً. صار بإمكانه أن يقول له إن عليه أن يصبح «متحضّراً». فمعرفتك غير علمية، ومؤسساتك لا تشبه المؤسسات الحديثة، وتاريخك لم يصل بعد إلى المرحلة التي وصلت إليها أوروبا.

التحوّل هنا دقيق. أوروبا لم تعد تعرض نفسها باعتبارها صاحبة دين يجب على الآخرين اعتناقه، وإنما باعتبارها صاحبة نموذج يبدو كأنه لا يحتاج أصلاً إلى تبرير: العقل، العلم، الحضارة، التقدّم. وهكذا استطاعت تجربة تاريخية محلية جداً أن تقدّم نفسها على أنها الطريق الطبيعي الذي يجب أن تمرّ به البشرية كلها.

وهذا بالضبط ما يجعل الفصل بين «الديني» و«العلماني» أكثر تعقيداً مما يبدو. فالحداثة لم تنزع عن أوروبا كل ما حملته من عالمها السابق ثم بدأت من الصفر. احتفظت أوروبا بالكثير مما تعتبره حقها القديم في تعريف الآخر، ولكنها أعادت صياغته بلغة جديدة. تغيّر السؤال من «هل يملك الدين الصحيح؟» إلى «هل هو متحضّر؟»، ثم إلى «هل هو حديث؟»، ثم إلى أسئلة أخرى عن التنمية والديمقراطية ونظام الدولة المقبول. وهكذا بقي طرف واحد، لقرون، يحتفظ لنفسه بحق تعريف المعيار الذي يُقاس عليه الآخر.

العودة إلى نتنياهو

وهنا يمكن العودة إلى نتنياهو؛ المثير في استدعائه للتوراة ليس أنه أعاد الدين فجأة إلى حرب كانت علمانية. فالحرب لم تكن موجودة أصلاً في عالم خالٍ من المعتقدات والقيم والتصوّرات عن الحق والتاريخ، المثير أنه استخدم لغة دينية صريحة في زمن اعتدنا فيه أن تظهر مثل هذه الادعاءات بأسماء أخرى، وأنه قال بصوت مرتفع ما تعلّمت مشاريع استعمارية حديثة كثيرة أن تقوله بلغة أخرى. كل مشروع استعماري يحتاج، إلى جانب القوة، إلى الإجابة عن سؤال سابق على الدبابة نفسها: لماذا حقي في هذه الأرض أو في تقرير مصير من يعيش عليها أعلى من حقه هو؟

في الحالة الصهيونية الدينية، تأتي الإجابة بلا كثير من التورية: الأرض موعودة، والتاريخ المقدّس يمنح جماعة بعينها حقاً في المكان يتجاوز وجود من يعيش عليه اليوم. وهنا يصبح النص الديني جزءاً من تعريف الحق نفسه، لا مجرد وسيلة تعبئة بعد اندلاع الحرب. لكن الخطأ سيكون أن نستنتج من ذلك أن السياسة تصبح دينية فقط عندما يقتبس نتنياهو التوراة ولأسباب تعبوية فقط.

السياسة لا تتحرّك بلا معنى

لهذا لا يكفي أن نسأل عن الدبابات والطائرات والمصالح الأميركية والبرنامج النووي. علينا أيضاً أن نسأل عن العالم الذي يجعل كل ذلك مشروعاً ومقبولاً لدى من يخوض الحرب. ما الذي يجعل أرضاً ما قابلة للاقتطاع؟ وما الذي يجعل حياةً أكثر قيمة من أخرى؟ وما الذي يجعل دولةً ترى لنفسها حقاً في إعادة رسم المنطقة كلها؟ هنا تصبح العودة إلى الدين ضرورة تفسيرية، بدلاً من اعتبارها موقفاً أيديولوجياً. والسبب ليس أن النص المقدّس يشرح الحرب وحده، بل لأن تجاهله يحذف جزءاً من الطريقة التي يفهم بها الفاعلون أنفسهم ما يفعلونه.وربما هذه هي المشكلة الأعمق في القراءة الحديثة للاستعمار: أنها تريد أن تفسّر العالم بعد أن تنزع منه المعاني التي يتحرك بها أهله، ثم تستغرب حين تعجز عن فهمه.

الجمعة 28 آب 2026

** العماليق: شعب عدو لبني إسرائيل يرد اسمه في التوراة. في سفر التثنية، يُطلب من بني إسرائيل أن «يتذكّروا» ما فعله عماليق بهم، وفي سفر صموئيل الأول يظهر أمر بمحو عماليق. لذلك يحمل استدعاء الاسم في الخطاب السياسي الإسرائيلي معنى يتجاوز الإشارة التاريخية، لأنه يستحضر صورة عدوّ وجودي ودِيني يجب القضاء عليه.*